واستطاع هرتسل ان يلعب الدور الذي رسم له ببراعة، وأضاف اليه من مواهبه الخاصة وقدرته على خداع الآخرين الكثير. فهو ولد في بودابست العام ١٨٦٠، وتلقى تعليمه في فيينا بين العامين ١٨٧٨ و١٨٨٤، واتسمت ثقافته العبرية بالضعف طوال حياته. وقد اشتغل هرتسل بالمحاماة، ثمّ بالصحافة، وكتب عدة قصص قصيرة ومجموعة من المسرحيات طرح في بعضها المسألة اليهودية «الغيتو الجديد»، والتي كان اهتم بها منذ سن مبكرة بقراءته لكتاب دوهرنغ المعادي للسامية. وقد قرأ أعمال الخيال العلمي التي كتبها جول فيرن، حيث نشرت له «خمسة أسابيع في منطاد» العام ١٨٦٢، و«رحلة في منتصف الأرض» العام ١٨٦٤، و «من الأرض الى القمر» العام ١٨٦٥، و«عشرون ألف فرسخ تحت الأرض» العام ١٨٦٩، وهو العام عينه الذي افتتحت فيه قناة السويس.

وقد اهتم هرتسل، اهتماماً خاصاً، بقناة السويس؛ كما اعتبر المهندس فرديناند ديلسبس مثله الأعلى في الحياة، ودرس حصوله على امتياز قناة السويس دراسة فاحصة، وتأثر باسلوب ديلسبس عند طرحه لمشروعه الاستعماري في سيناء والعريش. وقد دعا هرتسل، أول الأمر، الى تحويل اليهود الى الكنيسة الكاثوليكية؛ كما دعا الى اندماجهم في المجتمعات التي يقيمون فيها؛ لكنه أخذ يتخلى عن آرائه منذ العام ١٨٩٤؛ وربما كانت لمحاكمة الضابط اليهودي الفرنسي درايفوس دخل في هذا التغيير، حيث تابع هرتسل المحاكمة كصحفي. وكان درايفوس اتهم زوراً بالخيانة، وثبتت براءته بعد المحاكمة بعامين، لكن هذه المحاكمة هي التي جعلت هرتسل ـ كما قال ـ صهيونياً، نظراً الى صيحات العداء تجاه اليهود التي رافقت المحاكمة. وكان من هذه الهتافات: «الموت لليهود؛ الموت للخونة». وقد أثارت محاكمة درايفوس ضجة هائلة في فرنسا، ليس بسبب القضية، لأنه لم تكن هناك أزمة يهودية في ذلك الوقت، لكن القضية الأساسية كانت الديموقراطية، والتي استمرت كذلك بعد تبرئة درايفوس، وان ارتبطت قضية درايفوس، بشكل رمزي، بمصير الديموقراطية الفرنسية.

وقد أثّرت الظواهر اللاسامية في هرتسل. ومن الواضح ان أساس صهيونيته كان اللاسامية، الأمر الذي دفعه الى دعوته الى ضرورة اقامة دولة يهودية. وكانت أولى خطواته السعي الى مقابلة البارون هيرش، اليهودي الفرنسي، والتي لم تحقق أي نجاح؛ فأخذ هرتسل يتصل باليهود، ويدعو الى انشاء دولة يهودية، فكان كتابه الذي نشره، العام ١٨٩٦، «دولة اليهود». وفي آب (اغسطس) ١٨٩٧، نجح هرتسل في عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل، الذي انبثق عنه «ميثاق الحركة الصهيونية، المنظمة العالمية»[٢٢]. وبعد انتهاء المؤتمر الصهيوني الأول، وبعد ان أصبح هرتسل رئيساً لمنظمة صهيونية عالمية، انطلق الى تحقيق غرضه بعزم واصرار، وكان وجود المنظمة الصهيونية كافيا لحمل أكثر حاكم أو زعيم، من أبناء ذلك العصر، على مقابلة رئيسها والاستماع اليه.

ركّز هرتسل نشاطه على محورين: الأول، تقوية المنظمة الصهيونية العالمية بواسطة المؤتمرات الصهيونية المتتالية التي عقدتها، وانشاء الاجهزة المكملة لها، ودعمها؛ والثاني، الانتقال من بلد الى آخر لمقابلة زعماء وحكام عصره، لحملهم على تأييده في مساعيه للحصول على منطقة ما في العالم لاقامة دولة لليهود فيها، في فلسطين أو غيرها[٢٣].

التحالف مع الشيطان

كانت أحلام هرتسل أكبر من قدراته وامكانياته؛ لكنه استطاع ان يستغل كل امكانية، وكل ظرف سياسي، مهما صغر. وكان حلمه يدفعه الى انه صاحب رسالة عليا في الحياة؛ وهذه الرسالة هي